أسرار الاستعداد للحج

الحمد لله الذي جعل البيت الحرام مثابة للناس وأمنا، وكرمه بالنسبة إليه تشريفًا ومنة، فرض على عباده حج بيته الحرام، وجعله قبلة للأنام، يردونه ورود الظمآن، واختار منهم سماعا أجابوا دعوته وصدقوا كلمته.

عباد الله، مازلنا مع رحلة الحج، واشترطنا أن نسير مع الحاج في رحلته بأفئدتنا قبل أبداننا، فسير القلوب أبلغ من سير الأبدان.

وكم من واصل ببدنه إلى البيت الحرام وقلبه منقطع عن رب البيت!!

ذلك عباد الله لأننا نعلم أن قبول الأعمال يتوقف على شرطين أولهما الإخلاص والثاني المتابعة، ﴿ **وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥** ﴾[البينة: ٥]، ﴿ **قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١** ﴾[آل عمران: ٣١].

ولهذا عبد الله كما أننا نتعرف في سيرنا مع الحاج على مناسك الحج من الناحية الفقهية، فعلينا أن نتعرف على أسرار المناسك وحِكَمِها.

ليس المقصود هو السفر والإنفاق، ولكن المقصود هو الوصول إلى رب البيت وتهذيب النفس، قال رجل لبعض العارفين قال رجل لبعض العارفين: **"قد قطعت إليك مسافة، قال: ليس هذا الأمر بقطع المسافات، فارق نفسك بخطوة وقد وصلت إلى مقصودك"**[1].

ولهذا في الخطبة الماضية تكلمنا عن فضائل الحج لنستثير همم المؤمنين إلى السير لرب العالمين فعلمنا فضائل الحج.

وبهذا عباد الله أيقظنا الفكرة، وأخمدنا وسوسة الشيطان، فقام المؤمن ليحج حجة الإسلام

[1] لطائف المعارف (251/1)، لابن رجب رحمه الله.

أو يحج حجة بعد حجة.

فهنا يبدأ يفهم فقه هذه المسألة، فالحج يجب على كل مسلم بالغ، عاقل، حر، قادر، ووجود محرم مع المرأة من القدرة؛ لقوله ﷺ: **(لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُسَافِرَ سَفَرًا يَكُونُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَصَاعِدًا، إِلَّا وَمَعَهَا أَبُوهَا، أَوِ ابْنُهَا، أَوْ زَوْجُهَا، أَوْ أَخُوهَا، أَوْ ذُو مَحْرَمٍ مِنْهَا)**[1].

وكذلك من القدرة الزاد والراحلة والصحة، فإن عُدِمت القدرة المالية؛ فلا حج عليه، وإن عُدِمت القدرة الجسمانية؛ فيجب أن يوكل إن كان مريضًا مرضًا لا يرجى برؤه، لأن امرأة أتت النبي ﷺ وقالت: **(إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحَجِّ أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ، أَفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: نَعَمْ)**[2].

فلما علم المؤمن هذا، وعلم أن الحج على الفور، فإنه يسارع إليه ليؤدي الفريضة، أو لينال الأجر إن كان حج قبل ذلك، مبتهجًا به رافعًا عن نفسه الإثم، يرجو رحمة ربه ويخشى عذابه.

ولكن هنا وقفة بفؤاده وعبادة قلبه تسبق عبادة الحج، وهي:

أولًا: فهم شرف هذا البيت:

ولو لم يكن له شرف إلا إضافة الله إياه إلى نفسه بقوله ﴿ **وَطَهِّرْ بَيْتِيَ** ﴾ [الحج: ٢٦]، لكفى فاستشعر بركة هذا البيت، وكذلك فإن الله جعل ما حوله حرمًا تعظيمًا لأمره.

واستشعر بركة هذا البيت بأن الذي وضع أحجاره إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عند بنائه ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ** ﴾[البقرة: ١٢٧]، ثم سيدنا محمد ﷺ وضع الحجر الأسود.

---

[1] أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (1197)، وأخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه (1340)، واللفظ له.

[2] أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (1513)، وأخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه (1344).

ومن بركته: أن الصلاة فيه بمائة ألف صلاة، وقيل الحسنة فيه بمائة ألف حسنة.

من بركته: أنك تمتنع فيه عن الآثام وتلزم الإنابة.

ومن بركته: اتساع المكان للحشود والقلوب للزحام.

ومن بركته: أن الأفئدة تهوي إليه استجابة لدعوة إبراهيم ﷺ ﴿ **فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ** ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وافهم كلمة أفئدة فالرحلة ليست رحلة أجساد بل قلوب.

وحقًا عباد الله كما يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: (إذا كانت المساجد في جميع بقاع الأرض بيوت الله، وفيها نتقرب إليه بالجماعة مع أنها بيوت الله باختيار عباده، فكيف يكون التقرب إلى الله في بيته الذي اختاره؟!).

ومن الفهم أن تفهم أن الله قد اختارك من وسط مئات الملايين لتنال شرف الزيارة، وتشهد كرامة اللقاء، وأغلق الباب في وجه عظيم أو رئيس.

ثانيًا: عبادة التوبة:

فلا تبن صرح حجك وعمرتك على شفا جرف هار، فتحج وأنت تنوي المعصية، لا تفد بيت الله إلا بالتوبة، فمن أراد أن يدق باب الحرم بيده غدا؛ فليطرق باب التوبة بقلبه اليوم، فالذنوب عوائق عن الوصول، وإن وصلت؛ فموانع عن القبول.

ثالثًا: الشوق:

فيتحقق بأن تشعر أنك تطأ بقدمك موضعًا وطأه رسول الله ﷺ وترابًا مشى عليه الحبيب ﷺ، فلقد روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (**أَنَّهُ كَانَ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ يَقُولُ بِرَأْسِ رَاحِلَتِهِ يُثْنِيهَا وَيَقُولُ: لَعَلَّ خُفًّا يَقَعُ عَلَى خُفٍّ، يَعْنِي خُفَّ رَاحِلَةِ النَّبِيِّ** ﷺ)[1]، وربما تبكي وتنزل دمعتك على مكان نزل فيه دمعة صحابي، بل ربما تتنفس نسمات هواء ملأت صدور خير خلق الله.

[1] مصنف ابن أبي شيبة رحمه الله (34648).

ومن الشوق أنك تدرك أنك تزور رب البيت لا البيت، وتطلب القرب من الغفار لا من الأحجار.

وانظروا عباد الله إلى المشتاقين:

فها هو سفيان بن عيينة رحمه الله يقول: (**شَهِدْتُ ثَمَانِيْنَ مَوْقِفاً، وَيُرْوَى أَنَّ سُفْيَانَ كَانَ يَقُوْلُ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ: اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْهُ آخِرَ العَهدِ مِنْكَ، فَلَمَّا كَانَ العَامُ الَّذِي مَاتَ فِيْهِ، لَمْ يَقُلْ شَيْئاً، وَقَالَ: قَدِ اسْتَحْيَيتُ مِنَ اللهِ تَعَالَى**)[1].

وكان أحد السلاطين على فرسه فوجد الحجاج يذهبون، فرق قلبه يومًا واشتاق إلى البيت، فنزل عن فرسه وسجد وعفر وجهه التراب وبكى، وقال لهم: (**بلِّغُوا سَلاَمِي إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، وَقُولُوا: العَبْدُ العَاصي الآبِق أَبُو الفَتْحِ يَخدم وَيَقُوْلُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، لَوْ كُنْتُ مِمَّنْ يَصلُح لِتلك الحضرَة المُقَدَّسَة، كُنْتُ فِي الصُّحْبَة، فَضجَّ النَّاسُ وَبكُوْا، وَدَعَوا لَهُ**)[2].

وها هو ابن حنبل من شوقه يقول: (**حَجَجْتُ خَمْسَ حِجَجٍ، ثِنْتَيْنِ مِنْهَا عَلَى قَدَمَيَّ**)[3].

ومن شدة شوق أم أيمن المصرية وقت خروج الحجيج حين رأت الجمال وهي تتوجه إلى مكة أنها صرخت: (**وَاضَعْفَاهُ، وَتُنْشِدُ عَلَى أَثَرِ قَوْلِهَا:**

فَقَلْتُ دَعُونِي وَاتِّبَاعِي رِكَابَكُمْ ... أَكُنْ طَوْعَ أَيْدِيكُمْ كَمَا يَفْعَلُ الْعَبْدُ

وَمَا بَالُ رَغْمِي لا يَهُونُ عَلَيْهِمُ ... وَقَدْ عَلِمُوا أَنْ لَيْسَ لِي مِنْهُمُ بُدُّ

وَتَقُولُ: هَذِهِ حَسْرَةُ مَنِ انْقَطَعَ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ، فَكَيْفَ تَكُونُ حَسْرَةُ مَنِ انْقَطَعَ عَنْ رَبِّ الْبَيْتِ؟)[4].

---

[1] سير أعلام النبلاء ط الرسالة (8/ 465)، للذهبي رحمه الله.

[2] سير أعلام النبلاء ط الرسالة (19/ 56)، للذهبي رحمه الله.

[3] الحث على التجارة والصناعة (89)، لأبي بكر بن الخلال رحمه الله.

[4] مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن ط الراية (1/ 121)، لابن الجوزي رحمه الله.

ولسان حال قوم آخرين لئن سار الناس وقعدنا وقربوا وبعدنا فنخشى أن نكون ممن ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦﴾ [التوبة: ٤٦].

رابعًا: العزم

تعزم على مفارقة راحتك ورفاهيتك التي كنت تحبها في بيتك.

ومن العزم: الحسرة على فوات الطاعات وضياع الحسنات.

فكم من أناس امتدت أعمارهم وقلت أعمالهم!

وكم من أناس قصرت أعمارهم وامتدت أعمالهم!

فها هو الشافعي رحمه الله توفي في الرابعة والخمسين وقد ملأ الأرض علمًا.

وتوفي عمر بن عبد العزيز رحمه الله في الثامنة والثلاثين بعد أن حكم الأمة عامين وأشهر فحقق ما لا يحققه آخرون في عقود.

وتوفي الإمام النووي رحمه الله في الثانية والأربعين وقد ترك تراثًا يعجز أحدنا أن يقرأه فضلًا عن أن يكتبه.

يقول ابن عطاء رحمه الله: (**الخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه، ويقل عوائقك ثم لا ترحل إليه**)[1].

فكم من أناس يتفرغون ثم يذهبون إلى الحج ويضيعون أوقاتهم هناك!!

عباد الله، ها هو الحاج قد رغب في الحج وعلم فرضه وفضله، ثم إنه تعبد إلى الله بقلبه قبل نسكه، وها هو يبدأ الاستعداد للحج:

أولًا: الزاد من طعام ونفقة تعينه على المعيشة هناك، فاطلب ذلك من حلال ولا تسأل أحدًا.

وبأي وجه يقابل الله من سرق عباد الله، أيجوز التطهر بماء نجس؟!

[1] فيض القدير (1925)، للمناوي رحمه الله.

يقول بعض السلف: (**تَرْكُ دَانَقٍ مِمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ خَمْسِمِائَةِ حَجَّةٍ**)[1].

وقال رجل لابن عمر رضي الله عنهما: (**مَا أَكْثَرُ الْحَاجِّ؟ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَا أَقَلَّهُمْ؟ قَالَ: فَرَأَى ابْنُ عُمَرَ رَجُلًا عَلَى بَعِيرٍ عَلَى رَحْلٍ رَثٍّ، خِطَامُهُ حَبْلٌ، فَقَالَ: لَعَلَّ هَذَا**)[2].

إذا حججت بمال أصله سحت... فما حججت ولكن حجت العير

لا يقبل الله إلا كل طيبة ... ما كل من حج بيت الله مبرور

وتعلم السر من ذلك، فتعلم التزود في الرحلة الفانية للتزود للرحلة الأبدية.

وتعلم أن الزاد الحقيقي هو التقوى، فكما أن المسافر لا يصل إلى مقصده إلا بزاد يبلغه إياه، كذلك المسافر إلى الله والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى، وقد جمع الله بين الزاد والتقوى فقال: ﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ** ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وإن كان الطعام يقوي بدنك؛ فالذكر يقوي بدنك وروحك.

وأما الراحلة إذا حضرها فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عز وجل هذا المركب، وليتذكر عنده المركب الذي يركبه إلى الدار الآخرة، وهي الجنازة، وليتدبر عندما بحث عن مركب مناسب ليصل إلى ما يريد، فهل حصل المركب المناسب لبلوغ ما يريد من الآخرة؟ فوصوله إلى الآخرة أمر مقطوع به وسفره أمر مشكوك فيه، فكيف يهتم بهذا قبل هذا؟!

قَدِمَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ ابْنُ عَمٍّ لَهُ فَقَالَ لَهُ: (**مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ فَقَالَ: مِنْ طَلَبِ الدُّنْيَا، فَقَالَ: هَلْ أَدْرَكْتَهَا؟ قَالَ: لا، قَالَ: واعجبا! أَنْتَ تَطْلُبُ شَيْئًا لَمْ تُدْرِكْهُ، فَكَيْفَ تُدْرِكُ شَيْئًا لَمْ تَطْلُبْهُ؟!**)[3].

---

[1] جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (1/ 253)، لابن رجب الحنبلي رحمه الله.

[2] المصنف (8836)، لعبد الرزاق الصنعاني رحمه الله.

[3] التبصرة (146/1)، لابن الجوزي رحمه الله.